مِنْ حَدِيثِ القرآنِ مِنْ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ
" الأحــزاب "

بقــلم

أ . د . عبد السلام محمود الذهبي

قبل أن نتعرض لحديث القرآن عن غزوة الأحزاب يجدر بنا أن نتعرف على حال المسلمين والكفار قبل تلك الغزوة .

لقد مر بالمسلمين فور وصولهم إلى المدينة المنورة فترة من الزمن ذادت على السنوات الأربع قبل أن تكون وقعة الأحزاب ، وفى تلك السنوات كانت الحرب قائمة بين الشرك والتوحيد بين الكفر والإسلام ، وكانت هناك الغزوات الكثيرة ما اشتهر منها وما لم يشتهر ، وكان على رأس هذى الغزوات غزوة بدر الكبرى التى كانت فى السنة الثانية من الهجرة . وفيها تم النصر للمسلمين وقويت شوكتهم وعز جانبهم ، وأصبحت دولتهم قوية عزيزة وكلمتهم عالية مرفوعة بعد أن كتب الله لهم النصر على الشرك والمشركين .

ثم كان فى السنة الثالثة غزوة أحد وكان فيها ما كان مما نعلمه جميعاً حيث حلت الهزيمة بالمسلمين وقتل منهم من قتل . وكان لذلك أسباب معروفة لا تخفى على من له المام بسيرة الرسول ﷺ .

ولما كان المسلمين قد تعلموا مما حصل لهم فى أحـــد فأنهم بأمر ربهم وتوجيه نبيهم كان لابد لهم من أن يثبتوا للأعداء أنهم ما زالوا على العهد الذى قطعوه على انفسهم من نصرة الله ولرسوله فأنهم قاموا عقب غزوة أحد ببعض الأعمال الحربية ربما كان أهمها اجلاء يهود بنى النضير من المدينة بعد أن نقضوا عهودهم وهموا بقتل الرسول ﷺ وفى شعبان من السنة الرابعة للهجرة كان الرسول ﷺ وأصحابه على موعد مع الكفار من قريش بقيادة أبى سفيان بعد أن سولت لهم أنفسهم أن القضاء على المسلمين أصبح ميسوراً لهم بعد ما تحقق لهم من النصر .

وحتى تكون كلمة الله هى العليا دائمـــاً ورايةالإسلام هى التى تعلو ولا يعلى عليها خرج الرسول ﷺ فى نفس الموعد لمقابلة الكفر والكافرين فيما عرف بعد ذلك بغزوة بدر الآخرة .

يقول الدكتور محمد أبو شهبة (خرج الرسول وأصحابه إلى بدر لقاء أبي سفيان واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي دوسار في ألف وخمسمائة من أصحابه .

وكانت بدر محل سوق يقصد كل عام للتجارة في شعبان يقيم فيها ثمانية أيام يتبادلون فيها التجارة) فلما وصلوا إليها أقاموا فيها ثمانية أيام في انتظار أبي سفيان .

وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى بلغوا عسفان وقبل مجيئه ، ثم ألقى الرعب في قلبه فبدا له أن يرجع فقال: يامعشر قريش ، إن هذا العام عام حرب : ولا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر ، وتشربون فيه اللبن وإني راجع فرجعوا فسماهم أهل مكة جيش السويق يريدون أنهم خرجوا لشرب السويق لا للحرب)[1] .

وقد حاول أبو سفيان أن يقوم بحيلة القصد منها إرهاب المسلمين حتى لا يخرجوا إلى بدر حتى الموعد وبذلك يكون خلف الوعد من المسلمين وليس من قريش ، لذلك تراه يطلب من (نعيم بن مسعود الأشجعي) إن يذهب إلى المدينة فيتحدث هناك عن جيش الكفار وضخامته ومدى استعداده للقتال وقدرته حتى يفت ذلك في عضد المسلمين ويضعف من عزيمتهم وفعلا ذهب نعيم إلى المدينة وفعل ما طلب منه ولكن طاش سهمه وخاب أمله حتى لم يؤثر ذلك في نفوس المسلمين الأنيابا واستقراراً ، وقالوا ما قصه القرآن في ذلك (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)[2] .

---

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة جـ٢ ص ٢٠١

(٢) سورة آل عمران الآية ١٧٣ .

مما تقدم نلحظ ما كان عليه حال أعداء الإسلام فى ذلك الوقت اليهود وقد أجلوا عن المدينة والمشركون وهم لم يحققوا بغيتهم ولم ينالوا مأربهم فالقضاء على الإسلام وعلى رسول الإسلام فلا عجب بعد ذلك ولا غرابة أن فدى هؤلاء وأولئك من أعداء الإسلام وقد حاولوا أن يوحدوا حملتهم ويجمعوا جموعهم ليلقوا محمدا ﷺ وصحبه لقاء رجل واحد واحد فتكون كما سولت أحلامهم الغلبة ويتمكنون بذلك من القضاء على العدو المشترك بالنسبة إليهم جميعا لكن الله من ورائهم محيط .

ومن هنا بدأ التفكر والتدبر بما عرف بعد باسم غزوة الأحزاب أو الخندق فقد خرج [حيى بن أخطب] سيد بنى النضير فى نفر من قومه إلى مكة يستحثونهم فى الوقوف معهم فى صف واحد والخروج جميعاً لملاقاة المسلمين ويحسن هنا أن ننقل بعض ما سجلته كتب السير فى هذا الشأن مكتفين بنقل ما كتبه بن هشام مع بعض الاختصار .

يقول ابن هشام حدثنا ابن إسحاق بسنده قال قالوا وكان من حديث الخندق أن نفرا من اليهود منهج سلام بن أبى الحقيق النضرى وحى ابن أخطب النضرى والكنانة بن أبى الحقيق النضرى وهؤلاء من قيس الوائلى وابو عمار الوائلى فى نفر من بنى النضير ونفر من بنى وائل وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ خرجوا حتى قدموا على قريش مكة فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ . وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصل فقالت لهم قريش يا معشر يهود إنكم أهل الكتاب والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفدينا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى الحق منه وهم الذين قال الله فيهم [ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا أولئك الذين لعنهم الله

ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً] إلى قوله تعالى [أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله [أى النبوة] فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً][1] .

[اليهود تحرض غطفان أيضا وتذكر لها إتفاقهم مع قريش] .

قال : فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوهم إليه من حرب الرسول فاجتمعوا لذلك واستعدوا له ، ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس غيلان فدعوهم إلى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وإن قريشا قد بايعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه ثم يستطرد بن هشام فى ذكر خروج المشركين للقتال ويأخذوا فى ذكر أسماء قوادهم ليعود مرة ثانية ليتحدث عما فعله الرسول والمسلمون فيقول : [فلما سمع رسول الله بهم وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله ترغيبا للمسلمين فى الأمر وعمل معه المسلمون فيه فـــدأب فيه ودأبوا وابطأ عن رسول الله وعن المسلمون من عملهم هذا رجال من المنافقين فجعلوا يورون بالضعف عن العمل ويتلون إلى أهليهم بغير علم من الرسول ولا إذن .

وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجـــة التى لابد منها يذكر ذلك للرسول صلى الله عليه وسلم ويستأذن فى اللحوق لحاجته فيأذن له فإذا أقضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمل رغبة فى الخير واحتسابا له فأنزل الله فى أولئك من المؤمنين .

[إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع

---

(١) النساء ٥١ — ٥٥

لم يذهبوا حتى يستأذنوه إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم[1]].

فنزلت هذه الآيه فى المسلمين من أهل الحسبة والرغبة فى الخير والطاعة لله ولرسوله ﷺ ثم قال تعالى للمنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من النبى — ﷺ [لا تجعلوا[2] دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا[3] فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم][4] .

ويمضى ابن هشام بعد ذلك فى سرد وما كان لرسول الله من آيات بينات لهذه الغزوة مما هو مسجل فى الأحاديث النبوية وعمرت به كتب السيرة ويظل فى استرساله يذكر ما كان بعد أن أحاط الأحزاب المدينة وعسكر المسلمون فيها حتى جاء رسول الله .

ولقد طوينا الذكر على هذه التفاصيل خشية الإطالة، ومن أراد الاطلاع عليها فأمرها ميسور وذكرها منشور .

لكن نود أن نقف وقفة قصيرة هنا قبل الانتقال إلى بيان ما جاء فى القرآن الكريم فى شأن هذه الغزوة أقول : أقف هذه الوقفة لنرى صنيع هؤلاء وهؤلاء من تلكم الاحناف التى كان لها دور كبير فى هذه الغزوة ولنبدأ باليهود لنرى ما كان منهم إنهم الذين بدأو بتحزيب الأحزاب

---

(١) النور / ٦٢

(٢) النور / ٦٣

(٣) اللوذا : الاستتار بالشىء عن الهرب .

(٤) ميسرة بن هشام ج ٣/٦٨ مع بعض الاختصار .

وتجميع الجموع وليتهم كان عندهم ذرة من الإخلاص حتى لدينهم الذى يدعون الإنتساب إليه لقد كشف صنيعهم مقدار بعدهم عن الحق وأظهر أنهم فى كل ما فعلوا ويفعلون لا يقصدون نصرة دين وإنما هو الهوى والا فكيف يكون عندهم دين مع تفضيلهم الشرك على التوحيد إن هذا فى منطق العقل لعجيب أما المشركون فأمرهم ظاهراً إنهم يريدون اقتلاع الإسلام من جذوره ويودون لو قضى على المدنية ومن فيها وهم على شركهم ربما كانوا أصدق من اليهود حيث إن ظاهرهم وباطنهم على حد سواء أما المنسبون إلى الإسلام فقد تصلت آيات سورة النور أمرهم فالذين استحقوا منهم اسم الإيمان، ووصف المؤمنين على حقيقة هم الذين قاموا مع رسول الله ﷺ قلباً وقالباً ظاهراً وباطناً لم يطلبوا إلا ثواب الله وما عند الله خير وأبقى أما غير هذه الصفوة سوف تكفل الآيات التى نزلت فى هذه الغزوة ببيان شأنهم فمنهم المنافقون ومنهم الذين فى قلوبهم مرض إلى غير ذلك.

وبعد هذا العرض السريع لغزوة الأحزاب كما جاءت فى كتب السير يحق لنا أن نرجع إلى كتاب الله المجيد لنقرأ فيه ونعرف منه ماذا كان فى تلك الغزوة،

يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً﴾[1].

بهذا النداء الإلهى نادى الله سبحانه وتعالى المؤمنين مذكراً لهم بنعمه عليهم فى هذه الغزوة بعد أن أحاط بهم الأعداء من كل جانب والناظر فى هذه الآية وهى التى افتتح بها الحديث عما كان فى هذه الغزوة، يجدها قد أجملت كل أحداث الغزوة، أجملتها فى أسلوب قد بنى جمع البداية والنهاية

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٩

إلى أن النفوس كادت تبلغ الحلقوم من الخوف[1] وفي مثل تلك الأحوال تختلف مواقف الرجال فيظهر كل على حقيقته. وتختم هذه الآية لقوله تعالى [وتظنون بالله الظنونا] فيكون للكل مسلمين وكافرين. أما المسلمون فكان ظنهم الظن الحسن ظنوا أنهم مع رسولهم منصورون وأما أعداهم من كافرين ومنافقين فكان ظنهم ظن السوء وهو أن الهزيمة لا بد واقعة على المدينة وأهلها.

ولما وصف الله شدة الأمر يوم الخندق قال: [هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً][2].

أي امتحنوا واختبروا ليظهر لك حسن إيمانهم وصدقهم وصبرهم على ما أمرهم الله عليه من جهاد وأعدائهم فظهر من كان ثابتاً قوى الإيمان ومن كان ضعيفاً فيه وحركوا بالخوف تحريكا شديداً، وأزعجوا إزعاجاً عظيما وذلك لأن الخائف يكون قلقاً مضطرباً لا يستقر في مكان.

وبعد ذلك يحكي القرآن ما قاله المنافقون حينئذ بقوله: [وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا][3].

لجمع الله في هذه الآية بين المنافقين وبين من في قلوبهم مرض وهؤلاء وأولائك.

لقد اجتمعوا على تلك الكلمة [ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً] يعنون أن ماوعدهم الله على لسان رسوله ﷺ إنما هو زيف وباطل: وذلك

---

(١) زاد المسير ٦ / ٢٥٨

(٢) سورة الأحزاب ١١

(٣) سورة الأحزاب ١٢

فى آية واحدة، فالأحزاب قد جمعوا جموعهم وحاصروا المدينة والفوتان ليستا متكافئتين فى ميزان الحساب ولكن النصر يأتى من عند الله ، فإذا كانت جنود الأعداء تحيط بالمدينة والمسلمون يرونهم فإن لله جنوداً لم يرها أحد لم يرها المسلمون ولم يرها المشركون)وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

أرسل الله عليهم الريح ففعلت فيهم مافعلته يقول بن الجوزى(والريح التى أرسلت عليهم هى الصبا ، حتى أكفأت قدورهم ونزعت فساطيطهم ، والجنود والملائكة ولم يقاتل يومئذ وقيل إن الملائكة كانت تقلع أوتادهم وتطفىء نيرانهم وتكبر فى جوانب عسكرهم فاشتدت عليهم فانهزموا من غير قتال[1] .

وبعد ذلك العرض المجمل للغزوة يأتى بتفصيل لبعض ما كان فيها فيصور القرآن كيف كانت إحاطة الكفار بالمدينة فيقول [إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً[2] ، وفى هذا تصوير وبيان لكل الجنود المغيرين ووصف لأماكنهم فهم قد أحاطوا بالمسلمين من فوق الوادى ومن أسفله ثم إن المؤمنين قد زاغت أبصارهم ومعنى ذلك أن الأبصار مالت وعدلت فلم تنظر إلى شىء إلى عدوها مقبلا من كل جانب وكادت قلوبهم تخرج من أماكنها من شدة ما حل بها .

يقول قتادة فى تفسير قوله تعالى [وبلغت القلوب الحناجر] شخصت عن مكانها فلولا أنه ضاق الحلقوم عن أن تخرج لخرجت وذهب ابن قتيبة

---

(١) زاد الميسر جـ ٦ ص ٢٥٧

(٢) الأحزاب ١٠ ، ١١

أنهم قالوا : كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يستطيع أن يجاوز رحله ، وهذا والله الغرور .

وإذا كان هذا قول المنافقين ومن معهم فإن هناك آخرين قالوا أقولا هى الأخرى لا تصدر عن عمر قلبه الإيمان لقول الله تعالى (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيراً ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسؤلا قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) (١) .

يعلوا صوت هذه الطائفة بهذا النداء [يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا] إن المنادى بعض من سبق ذكرهم فى الآية السابقة . بعض المنافقين ينادون المؤمنين وهم يريدون تثبيطهم وادخال الروع فى قلوبهم (لا مقام لكم) ليس هناك مكان يصلح للاقامة .

وليس هناك استقرار وثبات . قالوا ذلك بعد أن خرج النبى ﷺ وأصحابه إلى حيث الخندق . فهم يستحثونهم على ترك أماكنهم ويأمرونهم بالرجوع ، ولكن إلى أى شىء يرجعون ، وعمن يرجعون ؟ هناك تفسيرات شتى لكن أى تفسير منها لا يليق إلا بأولئك المنافقين لقد قيل إنه أمر بالرجوع إلى المدينة وترك أماكن القتال .

أما الرأى الثانى فيقول إن المطلوب إنما هو الرجوع عن الإسلام إلى الكفر .

---

(١) الأحزاب من الآية ١٢ — ١٧

أما الرأى الثالث فيرى أنهم يقيلون الرجوع عن القتال إلى طلب الأمان (ويستأذن فريق منهم النبي يقولون أن بيوتنا عورة وماهى بعورة أن يريدون الافراراً).

لم يكتف المنافقون بما حاولوه من التخذيل . وماطلبوه من الرجوع من أصحاب الرسول مما سبق توضيحه بل كان لفريق منهم دوراً إيجابى ارآه وهو مقام به بنفسه فإذا كان من دعوهم على ترك إماكنهم قد يستجيبون وقد لايستجيبون فعليهم هم أن يؤدوا دورهم المرسوم وهو أن يتركوا هم الأماكن التى خصت للقتال ولكن كيف يكون ذلك؟

لابدلهم من اعذار يعتذرون بها لعلها تكون وسيلة إلى تحقيق اغراضهم وهنا يفضح القرآن صنيعهم لقد قالوا فى تبرير طلبهم الرجوع إلى المدينة [ان بيو تناعوره] مكشوفة ليست بحصينة عن بن عباس ومجاهد وقيل معناه أن بيوتنا خالية من الرجال يخشى عليها السراق عن الحسن وقيل قالوا بيوتنا مما يلى العدو ولا نأمن على أهلينا عن فتاوه[1].

وحينما يقولون ذلك يجيء تكذيبهم من عند الله سبحانه وتعالى فى قوله (وما هى بعوره أن يريدون الأفرارا) هذا هو قصدهم الفرار من القتال والهرب من نصر المؤمنين وزيادة فى وهنك أستارهم وبيان أن ماقالوه وما اعتذروا به من خوفهم على البيوت ومن فيها وما فيها يقول الله تعالى : (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وماتلبثوا بها الايسرا) ومعنى ذلك والله أعلم أن هؤلاء المنافقين الذين كانوا يطلبون الأذن بالعوده لحماية بيوتهم لو دخل عليهم الأحزاب المدينة من أقطارها أى جوانبها ونواحيها ثم سألوا أولئك المنافقين

---

(١) مجمع البيان ٣٤٧/٨

ما هو أعز من الموت وهو الايمان لرجعوا عنه وارتدوا إلى الكفر استجابة لدعوة الأحزاب ومن لا يهمه دينه فما أظنه بالحريص على بيته ثم أن الله سبحانه وتعالى بين كيف تكون منهم المسارعة إلى الإجابة بقوله (وما تلبثوا بها الا يسيرا) أى أنهم جيئا طلب منهم الترك فعلوه سريعاً دون إبطاء. وقيل أن معنى ذلك وما أقاموا بالمدينة يسيرا بعد أن ارتدوا كفاراً الا زمنا يسيرا حيث إن الله .

ثم يذكرهم الله سبحانه وتعالى ما كانوا قد اعطوه من العهود (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا) وفى بعض من أخذ عليه العهد آراء. لعل أوفقها ما نقله صاحب زاد المسير بقوله (إنه لما نزل بها المسلمين يوم أحد ما نزل عاهد الله وصعب بن قشير وقتيبه ابن حاطب لا نولى دبراقط فلما كان يوم الاحزاب فافقا قاله الواقدى واختاره أبو سعيد الدمشقى وهو اليق [١] .

وكان قد ذكر قبلة رايين أحدهما أنها نزلت فيمن بايع الرسول ﷺ يوم العقبه والثانى أنها نزلت فى أناس تخلفوا عن بدر فلما رأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة قالوا : لئن شهدنا قتالا لنقاتلن .

لكن لما كان الحديث سابقا عن المنافقين كان الأليق بالقبول من الأراء هو ما ذكر أولا وإن كان أولئك النفر قد أعطى الله العهد فإنه كان من الواجب عليهم أن يوفوا بما عاهدوا عليه الله ؟ وكيف لا وكل عهد كان بين الانسان وربه سيسأل عنه العبد يوم أن يقف بين يدى خالقه فيقال له لم لما توف بالعهد ألم تعلم أن عهد الله كان سؤلا .

وحينما يفر من فرو يعتذر زمن اعتذر لحسم القرآن الكريم الموقف

---

(١) زاد المسير ٦/٣٢٣

بالنظر إليهم بقوله جل وعلا (قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لاتمتعون إلا قليلا).

هكذا بين الله سبحانه وتعالى الحقيقة لأولئكم الفارين ، لم كل هذا أهو خوف من أن يلحقكم قتل أو موت ؟ إذا كان هذا هو هدفكم وغايتكم فقد ضاع الهدف . إن الموت حق . وكل إنسان لابد له من نهايه . فإما أن يقتل أو يموت حتف أنفه ، سبق بذلك القضاء ، وصدقته الإيام ، فهل من باق من الأولين الاجداد والآباء . لقد سبقوا وانقضت أيامهم بأحد الأمرين ، وإذا كانت النهاية محتومة والموت لابد منه فليتخذ الإنسان لنفسه الميتة التى يرضاها والتى يرضى بها عنه الله تعالى ورسوله — ﷺ — وليس هناك ميته أكرم من الإستشهاد فى سبيل الله . ثم إن القرآن الكريم يرخى لهم العنان ويظهر لهم ما يمكن أن يكون حتى لوصح مافهموه ، فيقول لهم : ماذا تنتظرون بعد الفرار ؟ هل هناك خلود أو بقاء بلا حدود كلا أنها أوقات معدودة وأنفاس محسوبة ثم لابد بعد ذلك من ملاقاة ما كنتم تكرهون . فلينظر العاقل كم بقى من الوقت أنه وقت قليل . فما دام بعده الموت أو القتل فلا شك أنه قليل .

جيب إن كل آت قريب وكذلك التمتع إذا يتم فهو يتمتع لوقت محدود (قل متاع الدنيا قليل والآخره خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلا)[1] .

وحينما يلزمهم الحق سبحانه وتعالى بهذه الحقيقة التى لاتنكر يعود القرآن مره ثانية ليسألهم سؤال أنكار عما هم فيه فيقول جل شأنه (قل من ذا الذى يعصمكم من الله أن اراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولايجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا)[2] أنه لا أجد لهم بمجير وليس لهم

---

(١) النساء فى الآية ٧٧
(٢) الاحزاب الآية ١٧

من نصير فاذا أراد الله بهم رحمه من نصراً أو عافيه أو سلامه فمن ذا الذى يقدر على منع ما أراد الله الامر لا يحتاج إلى الجواب ، فالكل يعترف بأنه إذا أراد الله أمر فإنما يقول له كن فيكون والحال فى السراء والضراء واحد فمشيئة الله نافذه وأمره واقع وعندئذ على من لا يلتزمون بالمنهج الالهى أن يبحثوا عن قريب يأوون إليه ، وعن نصير يلوذون به ولكن ولكن أتى لهم بذلك وقد قال الله تعالى [ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً] .

ويسير القرآن فى فضح أولئك الاقوام الذين خلت قلوبهم من الإيمان فكان منهم ما ذكره المولى جل وعلا فى قوله : [قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا] .

إنهم نفر من الناس اختلفت الروايات فى تحديد أشخاصهم فقد روى لنا صاحب زاد المسير فى سبب نزول هذه الآيه قولين :

الأول أن رجلا انصرف من عند رسول الله ﷺ يوم الاحزاب فوجد اخاه لامه وأبيه وعنده شواء وقال له أنت ها هنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف والسهام ؟ فقال هلم إلى فقد أحيط بك وبصاحبك والذى يحلف به لا يستقيها أحد ابرا فقلت له كذبت والذى يحلف به أما والله لا خبرن رسول الله ﷺ بأمرك .

فذهب إلى رسول الله ﷺ لنحده ، فوجدة قد نزل جبريل بهذه الآية إلى قوله (يسرا) هذا قول ابن زيد[1] .

والثانى أن عبدالله بن أبى . وشعب بن تشير والمنافقين الذين رجعوا من الخندق إلى المدينة كانوا إذا جاءهم منافق قالوا له ويحك ، إجلس قد

---

(١) ذكره الطبرى جـ٢١ /١٩٦ والسيوطى فى الدر المنثور جـ٥ صـ١٨

تخرج ويكتبون بذلك إلى أحوانهم فى العسكر أن ائتو بالمدينة فانا ننتظركم — يبطونهم عن القتال — وكانوا لا يأتون العسكر إلا أن لا يجدوا بداً فيأتون العسكر ليرى الناس وجوههم فاذا غفل عنهم عادوا إلى المدينة ، فنزلت هذه الآية قاله ابن السائب[1] .

ولما تعددت الروايات فى سبب النزول فقد إختلفت الاراء والنقول فى تحديد القائلين لأخوانهم (هلم الينا) فمن قال أنهم اليهود ، دعوا اخوانهم المنافقين ، ، وآخر يرى أن الأخ الذى سبق الحديث عنه مع أخيه فى سبب النزول وثالث يذهب اليهود كانوا يطلبون من المسلمين أن ينقضوا عن رسول الله ﷺ ويتركوه فى الخندق يلاقى الأحزاب واحده ولئن كانت أخوه الكفر والنفاق والمصلحة قد جمعت بين اليهود والمنافقين فأن أخوة الوطن والمكان جمعت بين الكسل حتى يمكن أن يحمل القول القائل بأن اليهود يطلبون من المسلمين التخلى عن القتال والعودة إلى الديار .

ثم أن هؤلاء المعوقين قد ذكر الله من أوصافهم مايفضحهم ويكشف بجلاء اسرارهم فهم بعدا الذى قالوه لا يغشون الحرب ، ولا يحضرون القتال إلا قليلا نعم أنهم قليل — قتال قليل أو زمن قليل ، كل ذلك جائز حملهم عليه سوء خلقهم المنافقين فهم يقاتلون رياء ولذلك وصف الله عملهم بالقليل لانه لم يكن خالصا لوجهه ولو كان ذلك القتال لله خالصاً لكان معه كثيراً[2] .

وعندما تختم الآية السابقة لقوله تعالى (ولا يأتون البأس إلا قليلا ، تأتى الآية التاليـــة لتزيدهم أوصافاً — لكنها أوصافاً كانوا أحق بها

---

(١) زاد المسير ٦/٣٦٤

(٢) المصدر السابق ، وأنظر الفخر الرازى جـ ٢٥ /٢ والألوسى جـ ٢١ صـ ١٦٣

وأهلها . فيقول الله تعالى (أشحة عليكم فإذا الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليك من الموت فأذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنه حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) .

لقد وصفهم الله بالشح والجبن فأى شىء يا ترى كأن شحهم ؟ لقد تعددت الاراء فى ذلك . يقول الالوسى . أى بخلاء عليكم بالنفقه والنصرة كما ذكروه عن مجاهد ، وقيل بأنفسهم ، وقيل بالغنيمة عن القسم وقيل بكل ما فيه مصلحه لهم وصوبه أبو حيان[1] .

ويرى الأمام الرازى أن اشح كان بالمال والولد ثم هل سجل ذلك فيقول بعد ما ذكر الآية (أشاره إلى جبنهم ونهاية روعهم واعلم أن البخل شبهة الجبن فلما ذكر البخل ذكر سببه وهو الجبن والذى يدل عليه هو أن الجبان يبخل بماله ولا ينفقه فى سبيل الله لأنه لا يتوقع الظفر فلا يرجون الغنيمة ، فيقول هذا انفاق لا يدل له بتوقف وأما الشجاع فقد ينفعه النصر والأغتنام فيهون عليه أخراج المال فى القتال طمعاً بما هو ضعاف ذلك وأما النفس والبدن فكذلك ا هـ[2] .

ذلكم شأنهم عندما يطلب منهم التقدم أو يعرض عليهم القتال فهل تلك الحالة لازمه أو أنهم يلبسون لكل حال لبوسها ، نعم من أولئكم الأقوام الذين يقلون عند الفذع ويكثرون عن الطمع وا ينام .

وقد بخلوا بما لهم وانفسهم عندما جـد الجد ثم تراهم بعد قليل كما

(١) الالوسى جـ١ ، جـ٢٠ صـ١٦٤

(٢) الرازى جـ٢٥ صـ٢٠١

صورهم القرآن الكريم (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنه حداد أشحة على الخير)

أى غلبوكم بالالسنة وأدركم بكلامهم ! يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم ويطالبونكم بالقسم الأوفر من القيمة وكانوا من قبل يرضون من القسيمه بالايات ومعنى اشحه على الخير) قيل الخير المال ويمكن أن يقال معناه ، قليلوا الخير فى الحالين كثير الشر فى الوقتين فى الأول يبخلون وفى الثانى كذلك[1] .

ويختم الله سبحانه وتعالى ببيان السبب الذى حملهم على ما هم فيه إنه عدم الإيمان فهؤلاء الأقوام أعنى المنافقين وإن نطقت السنتهم بالشهادة فالله أعلم بالسرائر لذلك حكم عليهم بعدم الايمان الحقيقى وإن كان هناك إيمان ظاهرى لا يسمن ولا يغنى من جوع فأحبط الله ذلك العمل الذى لم يقصد به وجهه «وكان ذلك على الله يسيرا) .

وتظل الآيات ناطقة بعظم جهلهم وشدة خوفهم فيقول سبحانه وتعالى « يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يات الأحزاب ودوالو أنهم بادون فى الأعراب يسألون عن أنبائهم ولو كانوا فيهم ما قاتلوا إلا قليلا »

وهكذا يبلغ بهم الخوف والجبن مبلغهما فهاهم أولاء الأحزاب قد أنصرفوا عن المدينة وتركوا أماكنهم التى كانوا فيها .

ومن كان ذا بصر أوعنده شىء من العقل لا بد أن يعلم أن الخطر قد زال لكن أولئك المنافقين وأصحابهم مع ذلك يحملهم جبنهم على عدم تصديق الواقع فهم يظنون الأحزاب ما زالت تحيط بالمدينه ويرون أن

---

(١) أنظر المرجع السابق

الخطر ما زال يحيط بهم خطر على ما بهم أنصراف الأحزاب أو تفعلوة لم يكن ذلك دافعا لهم إلى الاطمئنان .

لقد ملأ الخوف قلوبهم فهم يتصورن احتمالا غير وارد . ويضعون أنفسهم فى المكان الذى يحسبونه أنهم ربما ورد على أذهانهم بعد أن علموا بذلك الحصار وأنصراف الأحزاب أحتمال الأحزاب مرة ثانية .

لذلك فهم يتمنون لوحصل ذلك أن لا يكونوا من سكان المدينة بل يكونون قد تفرقوا فى البوادى وحينئذ يسألون عن الأنباء . وهم يبعدون عن أماكن القتال يسألون أى قادم من ناحية المدينة عما حصل لمحمد ﷺ وصحبة سؤال شمانه كايسألون عن أحوال الأحزاب لعلهم يسيمعون مايسرهم .

ومن المعلوم أن وجودهم مع المسلمين ليس فيه من الغنائم إلا القليل مصداقا لقوله تعالى « ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا » وما رموا بالحجاره مع أنهم لا يقاتلون عن أخلاص ونية .

يقول الامام الرازى فى تفسير هذه الآية

« أى من غاية الجبن عن ذهابهم كانوا يخافونهم وعند مجيئهم يودون لو كانوا فى البوادى ولا يكونون بين المقاتلين مع أنهم مع حضورهم كانهم غائبون حيث لا يقاتلون كما قال الله تعالى (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا »[1]

وكأنى بالأمام يرى أن الآية وصف لهم قبل مجيء الأحزاب وبعد رجيلهم إن البعض يرى أن قوله تعالى : « وإن يأت الأحزاب « إنما هو

---

(١) الفخر الرازى جـ ٢٥ ص ٢٠٢

على سبيل العرض فالجبن مركوز فى قلوب المنافقين دائماً ، من قبل ومن بعد وصدق الله العظيم « يحسبون كل صيحة عليهم »[1] .

وعندما يتم الحديث عن المنافقين، يلتفت النظم الكريم إلى اضدادهم إنهم المؤمنون المخلصون الذى صدقوا ما عاهدوا الله عليه فسمع الآيات وهى توجه إليهم ذلك القول الجميل « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً » .

يقول الإمام ابن كثير : « هذه الآية الكريمة أصل فى التأسى برسول الله ﷺ فى أقواله وأفعاله وأحواله ولهذا أمر الله تعالى الناس بالتأسى برسول الله ﷺ يوم الأحزاب فى صبره ومصابرته ومراقبته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه عزوجل: صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين.

ولهذا قال الله للذين تقلقوا وتضجروا تزلزلوا واضطربوا فى أمرهن يوم الأحزاب ، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنه ، أى هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله ﷺ ولهذا قال الله تعالى : «لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[2] .

وبينما نرى الإمام ابن كثير يقول تلك المقال ، نجد الإمام القرطبى يخصص الخطاب فى الآية بجعله عتاباً لمن تخلف عن القتال مع رسول الله ﷺ يوم الأحزاب فيقول : « هذا عتاب للمتخلفين عن القتال ، أى كان لهم قدوة فى النبى ﷺ حيث بذل نفسه لنصرة دين الله فى خروجه إلى الخندق[3] ، فاستطرد رحمه الله فى بيان معنى الآية ، فنراه يقول عن تفسير

---

(١) سورة المنافقون الآية ٤

(٢) ابن كثير ص ٣ ، ٤ ، ٢٠٧

(٣) القرطبى حـ ١٤/١٠٥

لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر » قال سعيد بن جبير المعنى لمن كان يرجوا لقاء الله بإيمانه ويصدق باليوم الآخر الذى فيه جزاء الأعمال وقيل : أى لمن كان يرجو ثواب الله فى اليوم الآخر ويكمل ذلك الحديث فى قوله تعالى : « وذكر الله كثيراً » خوفاً من عقابه وطمعاً فى ثوابه »[1] .

ولما بين الله حال المنافقين من حال المؤمنين فقال : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » .

ويشرح زاد المسير المراد من قوله تعالى : «هذا ما وعدنا الله ورسوله» فيقول «وفى ذلك الوعد قولان فى أحدهما أنه قوله: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنه ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم »[2] فلما عاينوا البلاء يومئذ قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله قاله ابن عباس وقتاده فى الآخرين .

والثانى : إن رسول الله ﷺ وعدهم النصر والظهور على مدائن كسرى وقصور الحيرة، ذكره الماوردى وغيره[2].

ويلفت الإمام الرازى إلى ما فيه الآية من أسرار فيقول إن «ما وعدنا الله ورسوله» جاء فى مقابله قول المنافقين سابقاً « ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً» وقولهم : « وصدق الله ورسوله» لفين إشارة إلى ماوقع فأنهم كانوا يصدقون صدق الله قبل الوقوع وإنما هو بشارة وهو أنهم قالوا «هذا ماوعدنا الله » وقد وقع وصدق الله فى جميع ما وعد به ففتح الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس « ما زادهم الا إيماناً وتسليما » بوقوعه وتسليما عند وجوده »[3] .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) سورة البقرة الآية ٢١

(٣) الفخر الرازى حـ٢٥/٢٠٣

وإذا كان المنافقون قد عاهدو الله لا يولون الأدبار ثم أختلفوا فأن المؤمنين على العكس من ذلك ، لقد وفوا بما عاهدوا مازالوا على العهد يقول الله تعالى : «من المؤمنين رجال صدقوا ماعدهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا» ، وفى تبين من نزلت فيه هذه الآية قولان :

الأول : أنها نزلت فى أنس بن النضر وقد تخلف عن غزوة «بدر» فعاهد الله أن شهد مشهد آخر لدين الله ما يفعل : فلما كان يوم أحد وفى بما عاهد الله عليه .

والثانى : أنها نزلت فى طلحه بن عبد الله وقد حمل بعض المفسرين صدر الآية أى الذين وصفهم الله بالصدق منه فى العهد فى أنس رضى الله عنه ، أما قوله تعالى: «فمنهم من قضى نحبه» فقد نزلت فى طلحه رضى الله عنه ، وقد فسر النحب ثلاث تفسيرات .

الأول : أنه الأجل والمعنى عليه فمنهم من قضى أجله .

الثانى : العهد والمعنى عليه فيهم من وفى .

الثالث : النذر وعليه يكون المعنى فمنهم من وفى نذره[٢] .

ثم بين الله عاقبة الفريقين فيقول : «ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيما» ،

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ذلك نصيب المؤمنين أما المنافقون فالأمر فيهم راجع إليه سبحانه وتعالى ، وقد وصف نفسه فى ختام الآية بالمغفرة والرحمة ، لذلك فما زال باب الجد مفتوحاً أمامهم إن تابوا عن النفاق تاب الله عليهم وإن هم أصروا على ماهم عليه فالعذاب سينتظرهم .

---

(١) انظر زاد الميسر حـ ٦ ص ٢٧١

وتختم الآيات الحديث عن الغزوه فتذكر تلك النهاية اليقظة للمسلمين والهزيمة التى لم يتوقعها أعداء الله من الأحزاب لقد بيتو أمرهم وجمعوا جيوشهم قاصدين المدينة المنورة يريدون أن يستأصلوا الإسلام منها ، وما علموا أن لله جنوداً لا ترى وأن الله وعد رسوله بالنصر ووعد الله حق وإذا كان الأحزاب يعتقدون أن صنيعهم وهدفهم هو الخرب وماهو بخرقان الله يرد عليهم بقوله: «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً».

صدق الله العظيم ؟